مفهوم البطولة في أعمال نجيب الكيلاني

الأستاذ المداني عدادي - المغرب

أديب وكاتب - تازة

تمهيد:

قد يكون من باب تحصيل الحاصل الحديث عن مفهوم البطولة أو البطل، بوجه عام وذلك لاعتبار أن الموضوع قد أفيض فيه.. وخاصة من لدن الأبحاث الأكاديمية والجامعية المتخصصة.

كما أن معظم مفاهيم البطولة التي ركبت موجتها الرواية العربية، مستقاة من الغرب، وهذا طبيعي جدّا باعتبار الرواية - ذاتها - غربية المنشأ، لذا فلا غرابة أن تفد معها تقنياتها، وأدواتها أيضا.

لكن، وما دام " لكلّ أدب قومي تصوّر عن بطله الخاص يتميّز تماما عن الآداب الأخرى "[(١)]، كان من الضروري البحث عن فضاءات أخرى للبطولة في أدبنا العربي، وبناء مفهوم جديد لها. ولعلّ ميلاد البطل الشعبي في الرواية العربية، كان من أولى إرهاصات هذا التحوّل.

ولكن حينما يتعلّق الأمر بالأدب الإسلامي، فالأمر يختلف؛ لأنه لم يتبنّ الطرح القومي ولا الشعبي الضيّق، بل اختار الصعب، حين راح يبحث عن مفاهيم جديدة للبطولة يستقيها من رحابة الإسلام وأمجاده الخالدة؛ كما هو الشّأن في بعض أعمال نجيب الكيلاني: كقاتل حمزة وعمر يظهر في القدس وغيرهما.. بل وفي أعمال أخرى تبنّت الطرح الإسلامي في معالجة مضامين اجتماعية، واقتصادية، وحتى عاطفية أو سياسية.. بمنظور إسلامي صرف.

---

(١) الواقعية اليوم وغدا، بورسيف بوريس، ص: ١٢٧

البطولة من منظور إسلامي:

لا نريد هنا أن نعطي البطولة مرجعية محدّدة، انطلاقا من تراكمية إبداعية أو نقدية بطبيعة الحال؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه ـ كما يقال ـ وإنما نريد أن نُؤطّرها في جهاز مفاهيمي يرسم دلالاتها من خلال ارتباطها الانتمائي المباشر للإسلام. وهذا كفيل بأن يعطيها الشرعية في الوجود، حتّى وإن لم تكن هناك قرائن مادية (إبداعية أو نقدية) تثبت هذا الحضور. لأن الأدب الإسلامي، بوجه عام، ينبغي أن يتناسق مع المنظومة الكبرى التي أنجبته؛ ألا وهي النظرة الإسلامية للكون بكلّ أبعادها ومراميها؛ لذا فالأدب الإسلامي لا يقبل التجزيء كما أن الدين الإسلامي لا يقبل ذلك بالتحديد.

و ضمن هذا الترابط، والانتماء، يمكننا أن نحدّد ماهية هذه البطولة، انطلاقا من الخطوط العريضة للإسلام.

كيف ذلك..؟

فالبطولة ـ منذ بدأت مفهوما وفلسفة في الوجود ـ ارتبطت بأنموذج في الحياة (سواء كان طبيعة، أم آلهة، أم حيوانا، أم بشرا..) تفاعلت معه، وسقته هواجسها وأحلامها، ورغباتها الباطنة، والظاهرة.. ومع مرور الزمن وبالصقل، والتهذيب، صار هذا البطل يحاكي الطبيعة، والإنسان. و في النهاية سقط أسير جاذبية الواقع.

وما دامت كلّ ثقافة ترسم ملامح بطلها؛ أو نموذجها المرغوب، فلا غرابة أن تتحدّد ملامح بطولتنا الإسلامية، خاصة إذا علمنا أن التاريخ قد قدّم لنا نماذج فعلية واقعية، ارتضتها الشعوب، ونحتتها الأخيلة، واحتفظت بها الذاكرة طوال هذه السنين. والعائد إلى السير والتراجم سيجد مصداقية هذا الطرح.

إذن فهل لهذه البطولة ما يميّزها عن غيرها من البطولات..؟ ثم ما هي خصائصها أو ملامحها التي قد تحدّدها حتى نطلق عليها مصطلح: البطولة الإسلامية؟

ملامح البطولة الإسلامية:

بداية، فهي ليست بالبطولة الأسطورية (بطولة الخوارق) ولا بالمعضلة، أو السلبية وإنما هي بطولة طبيعية إيجابية تشمل جميع الطبقات، والمستويات.. وقد يجعلها هذا في إطار البطولة الكلاسيكية الجديدة.. لكن ما يميّزها عنها - حقّا - هو كونها بطولة ثابتة لا تعرف التغيّر. وقولنا (ثابتة) لا يعني أنها جامدة غير متطوّرة، وإنما نعني أنها مستقرة الرؤى، والمبادئ؛ لا تتأثّر بالمستجدّات، والمتغيّرات والطوارئ؛ أو بمعنى آخر: هي بطولة المواقف، والالتزام بالنهج القويم.

و لعلّ من ضمن خصائصها ما يأتي:

أ - كونها غير ذاتية:

فهي تلغي الذات، وتنكرها لحساب الآخر، وهموم الآخرين؛ فحتى الشعر الذي واكب أحداث الدعوة الإسلامية ونهوضها، حينما تعرض إلى ذكر شخصياتها، وعلى رأسهم الصحابة الأجلاء، لم يذكرهم لذواتهم، أو لخصائص عرقية أو قبلية أو مادية.. وإنما ذكرهم لمقوّماتهم الجماعية لا غير، ولذوبانهم الفردي في النسيج العام، وما حقّقوه لصالح الأمة، والجماعة من قيم الحق والخير والجمال؛ وكان مقياس التفاضل بينهم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

و قد رُوي أنه وفد على رسول الله ﷺ جماعة من بني تميم، بعد فتح مكة ودخلوا المسجد وقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك؛ فائذن لشاعرنا وخطيبنا. فأذن لخطيبهم، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة. فأمر رسول الله ﷺ قيس بن ثابت فردّ عليه. ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال:

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... مِنّا الْمُلُوكُ وَ فِينَا يُقْسَمُ الرّبعُ

وَنَحْنُ نُطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مطْعمَنَا ... مِنَ الشِّوَاءِ إِذَا لَم يؤْنَسِ الْقَزَعُ

ولما فرغ الزبرقان بن بدر أمر رسول الله ﷺ حسّان بن ثابت بالردّ عليه فارتجل حسان قصيدته المشهورة:

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَ إِخْوَتِهِمْ قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الإِلَهِ وَ بِالأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا

و الفرق هنا واضح بين الشاعرين، فالأول دائرته قبلية ضيقة، والثاني دائرته أممية واسعة، والأول هدفه أن يُقال عنه وعن قبيلته أنهم كرماء، والثاني يرى ذلك واجبا وشرعة ومنهاجا. كما أن همّ الزبرقان جاء دنيويا، أما همّ حسّان فوق ذلك كلّه، فقد كان همّا أُخرويا بالأساس.. وكذلك الفرق بين الرؤيتين أو بين البطولتين.

و لذلك لا غرابة أن نسمع من: الأقرع بن حابس (وهو أحد رجال الوفد) لما فرغ حسّان من قصيدته يقول: "والله إن هذا الرجل - يعني محمدا- لمؤتى له، ولخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا"، ثم أسلموا.[1].

ولما جاء عبد بني الحسحاس يمتدح عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال فيه:

عُمَيرَةُ وَدِّعْ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَازِيا كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلاَمُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

فامتنع سيدنا عمر عن صلته، وقال له: كنت سأصلك لكنّك قدّمت الشيب عن الإسلام. فالشيب من الذات، وعمر الورع لا يودّ أن يُقدّم ذاتيته على الإسلام حتى ولو كان ذلك مجرد تجاور أو ترتيب في التركيب اللغوي فقط. فهذه ثمرة من ثمرات تربية الإسلام لهم، والتي كانت تُسقى بماء القرآن، وعلى يد مهندس أخلاقي رفيع قال فيه ربّ العزة: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم).

و لما تعرض القرآن الكريم للنخبة المهمة وزبدة الأمة قال فيهم وفي نبيّهم الكريم: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ

(١) أدب العرب في صدر الإسلام، د. حسين الحاج حسن، ص: ٧٩

وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الفتح).

و حتى رسول الرحمة، وسيد الخلق، وبطل الأبطال، ومنقذها من الضلال، وهو من هو من عصمة وتقوى وجاه وسؤدد، وسمو في الأقوال والأفعال، ومحبة بين الجميع.. ومع ذلك لم يظهر عليه شيء مما سلف، بل تواضع وقال: ﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ (الأحقاف).

أليست هذه ومثيلاتها من أروع مقومات البطولة التي نودّ ونروم..؟

والأدب الإسلامي حين يعانق هذه القمم، ويقتبس من هذه القيم، لا جرم أنه يؤسس مفهوما جديدا لبطولته النموذجية.

وعلى الرغم من إيماننا الراسخ بأننا عاجزون كلّ العجز عن حماية الإبداع من ذاتية المبدع.. إلاّ أننا مع الكيلاني أمام شكل يختلف بعض الشيء عن هذا التعميم.

فالكيلاني حين يوظّف الذات، فهي ذات جماعية، و"أنا" تختزل كلّ هموم، واهتمامات الآخرين؛ إلى درجة أنك حين تقرأ رواياته، تحسّ بانسجام تام، وبحالة من التقمّص لبعض شخصياتها.. ساعتها تدرك النفس الزكية، بل وتمسك باليد الخفية التي تحرك خيوط وانفعالات هذه الشخصيات.. إنها همسات دافئة لقلب دافق بالأحاسيس والمشاعر الإنسانية الجياشة، التي لا تقف عند جنس دون آخر، بل هي لمسات لا يخطئ قارئها حين يردّها إلى المشكاة الروحانية التي تصدر عنها، وإلى النفس الأبية التي تحرّكها؛ نفس مرهفة الحس والوجدان، تسعى إلى نشر بوادر الخير والحق والجمال.. وتطمح إلى استئصال بواعث الجور والفساد.

ب) كونها غير مكتملة:

هل هي ناقصة بالفعل؟ وما مظاهر هذا النقص بالمفهوم المتواضع عليه في النقد الحديث؟

فهي غير مكتملة بالطبع، لكن الكيلاني أرادها كذلك لمسوّغين:

- المسوّغ الأوّل:

أن البطولة الحالية (بالمفهوم الإسلامي) لم تكتمل بعد، بل ما زلنا نبحث عن بطولات جديدة مثيلة لتلك التي قرأناها أو سمعنا عنها في الكتب، والحكايات، وبالتالي فهو يحمل أيقونا لواقع متوقّع، ولكنه يظلّ لديه غير مُحقّق.. في الحلم نعم ومادام مرفوعا، وغير ملامس للحقيقة، عمل الكيلاني على عكسه بهذا الشكل أو الوضع، حتى في رسم شخصياته.

لذا نجد هذه البطولة تأتي ـ في معظم رواياته ـ غير مكتملة، ليست في ذواتها (لأنها ليست بطولة سلبية)، بل في أحداثها، إذ نلاحظ ـ مثلا ـ أن بطل "طلائع الفجر" يموت في عزّ الانتصار، ويترك عروسه الجميلة نهبا للحيرة والدّمع المدرار.

وكذلك "فاطمة" بطلة: "عذراء جاكرتا" تموت ـ هي الأخرى ـ ولمّا تذق بعد حلاوة الانتصار على أذناب الشيوعية. وشخصية "عمر" بطل "عمر يظهر في القدس" يختفي -هو أيضا- دون تحقيق الأمل؛ وهو تحرير القدس من يد الغاصبين..

فهذه النهايات النوعية وغيرها، تطرح أكثر من سؤال؛ لذا لم نجد لها غير مبرّر واحد؛ وهو: عدم اكتمال البطولة العربية والإسلامية بعد، وبالتالي عدم تشكّل واقعها بالأصل.

ولهذا جاءت بطولاتها بهذا الشكل المخالف لطبيعة البطولة؛ ذات النهاية السارة، ومع ذلك فهي ليست بالبطولة المنهزمة المحبطة، لأن الأمل يبقى ـ دائما ـ الراية المرفرفة التي يحملها الكيلاني، ملوّحا بها للأجيال القادمة، وذلك في معظم رواياته التي خلّفها - وقد تجاوزت الأربعين.

وليس هذا حكرا على "الكيلاني" فحسب، بل حتى شخصيات (أبطال) رواية:

"الإعصار و المئذنة" للدكتور عماد الدين خليل تنتهي ـ هي الأخرى ـ بنفس الطريقة؛ فالأب "عبد الرحمن" وابنته "سلمى" والإمام "الشيخ عبد السلام".. كلهم يسقطون ـ بعد حرب نفسية وكلامية ـ شهداء أمام رصاص الشيوعيين الغادر..[1].

(١) قد يكون لواقعية الأحداث دخل في الموضوع، لكن مع ذلك يبقى الاعتبار لكيفية التناول والاختيار.

المسوّغ الثاني:

هو أن انتهاء البطولة بهذا الشكل ينسجم مع المفهوم الإسلامي للبطولة؛ لأن البطولة تكليف وليست تشريفا، مثلها مثل المسؤولية تماما، (أوليس جرّ خيوط الأحداث، داخل رواية ما، تعجّ بالأحداث، والشخصيات والمتناقضات.. أشبه ما تكون بالمسؤولية التي يتقلّدها حاكم ما في مجتمع ما..؟) كما أنها أمانة.

وما دامت تكليفا؛ فهي بطولة منقضية بانقضاء واجبها، وبالتالي لا يبقى منها غير الذكر الطيّب والفعل الحسن.

ويمكننا أن نستحضر هنا بطولات سيف الله المسلول "خالد بن الوليد" العظيمة والتي بلغت الآفاق، تناقلها الركبان.. ومع ذلك ركن إلى الظل، كعامة الناس طائعا راضيا بقرار الخليفة آنذاك: "عمر بن الخطاب" - رضي الله عنهما- والقاضي بإقالته من منصبه، لصالح "أبي عبيدة بن الجراح" والمبرّر..؟: حتى لا تفتنه، وتفتن غيره توالي انتصاراته.

بل يتفنّن "الكيلاني" في رسم شخصية هذه البطولة المكتملة الإيجابية والنموذجية في آن، إلى درجة نكران الذات، وذوبانها في ذات جماعية هدفها خدمة الصالح العام، ولعل أرقى نموذج لهذه البطولة؛ هو شخصية "المقنع" في رواية "طلائع الفجر" والتي استطاعت أن تتقمّص بطولتين في آن واحد؛ شخصية "إبراهيم" الشاب المجاهد الشجاع، وشخصية "المقنع" الجندي الغامض المكافح بكلّ تواضع، وبرودة أعصاب، دون افتتان، وبعيدا عن الأضواء؛ وهي بطولة مزدوجة أشبه ما تكون "بالسوبرمانية" الغربية المستحدثة، لكنها أزكى وأطهر وأشبه ما تكون، أيضا، بأسطورة الجنديّ المجهول، لكنها على أرض الواقع حقيقة تلمس، وليست حكاية تُعاد؛ شخصية نستمدّها من روح الجهاد الإسلامي، ومفهوم البطولة الحقّة، بل في إرثنا العريق أكثر من مثال لهذا النموذج: فقد جاء في الأثر الشريف:

«طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَ إِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»(١).

و يروى أن المسلمين ـ زمن فتحهم بلاد الروم ـ أحدثوا نقبا في سور العدوّ، وأوكلوا حراسته ليلا لأحد الجنود، حتى يطلع الصباح، فلمّا أصبحوا وجدوه قد أكمله وحده، فمكّن الجيش من الدخول منه، وبعد الانتصار في المعركة، نادى القائد (٢) على صاحب هذا العمل، فلم يخرج إليه أحد.. فعزم عليه أن يقدّم له نفسه في أيّ وقت. وذات ليلة جاءه رجل، وقال له: أنا أعرف صاحب النّقب، وهو يشترط عليكم شروطا:

١ـ ألاّ تذكروا اسمه في صحيفة إلى الخليفة أو غيره.

٢ـ ألاّ تسألوه عن اسم أبيه أو عن اسم قبيلته.

٣ـ ألاّ تأمروا له بمكافأة.

فلمّا أجابه القائد إلى شروطه، وسأله عن صاحب هذا النّقب، أجاب: أنا صاحب النقب، ثم انصرف. فكان القائد يدعو ـ بعد هذا الحدث ـ وعقب كلّ صلاة قائلا: اللهمّ اجعلني مع صاحب النّقب.

فالمسلم في أيّ بطولة، وفي أيّ موقع، لا همّ له سوى خدمة هذا الدين، وبالتالي مرضاة ربّه دون سواه، لا من أجل دنيا يصيبها، ولا امرأة جميلة يغنمها، ولا من أجل منصب أو جاه، أو نياشين، أو أوسمة فارغة.. وتلك ـ واللّه ـ هي البطولة الحقّة دون افتتان، ولا اغترار. وهذا خالد بن الوليد وهو من هو في الإقدام والبطولة أو: (الرجل الذي لا ينام، ولا يترك أحداً ينام) كما وصفه أصحابه، يحدّد بعض ملامح هذه البطولة قائلا:

"مَا لَيْلَةٌ يُهْدَى إِلَيَّ فِيهَا عَرُوسٌ، أَوْ أُبَشَّرُ فِيهَا بِوَلِيدٍ، بِأَحَبّ إِلَيَّ مِنْ لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ الْجَلِيدِ، فِي سَرِيَّةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُصَبِّحُ بِهِم الْمُشْرِكِينَ."(٣).

(١) حديث شريف رواه البخاري، تحت رقم (٢٦٧٣).

(٢) هو مسلمة بن عبد الملك من قادة الدولة الأموية، غزا بلاد الروم، وحاصر القسطنطينية، توفي سنة: ١٢٢ هـ

(٣) رجال حول الرسول، خالد محمد خالد، ص: ٣٠٥

بل كانت مأساة هذا البطل في الحياة هي أن يموت على فراشه، حيث قال في آخر حياته والدموع تنثال من عينيه:

"لَقَدْ شَهِدْتُ كَذَا وَ كَذَا زَحْفًا، وَمَا فِي جَسَدِي مَوْضِعٌ إِلاَّ وَفِيهِ ضَرْبَةُ سَيْفٍ، أَوْ طَعْنَةُ رُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةُ سَهْمٍ.. ثُمَّ هَا أَنَذَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي حَتْفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ الْبَعِيرُ، فَلاَ نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ!"(١).

ونجيب الكيلاني حين يضع حدّا لأبطاله - بهذا الشكل- يكون قد قدّم البطل النموذج مبنى، ومعنى للقارئ، حتى وإن كنّا نتعاطف معهم، ونتأثر لنهاياتهم، لكنّها الحقيقة، تبقى دائما فوق كلّ اعتبار.

هل «عبدالمتجلي» هو الشخصية الإسلامية التي نريد؟

أظن السؤال جاء تقويما للعمل كافة؛ فبعد فترة تأمّل لما أنجز بشكل عفويّ أو واع.. اكتشف في النهاية أن شخصية "عبدالمتجلي" قد سرقت منه الشيء الكثير من أحاسيسه ورؤاه.

صحيح أنّه لم يأت صورة طبق الأصل للكاتب، لأن هناك دائما الشرطي الخفي القابع خلف ذاكرة كلّ كاتب، لذا لم نكن ننتظر أن تصبح إحدى شخصياته هي ذاته مئة بالمئة.. ولكنّنا أحسسنا بتقارب كبير، وتعاطف جليّ بين الكيلاني وشخصية عبد المتجلّي، ولنترك الكلمة الآن للكيلاني كي يجيب عن هذا السؤال: "إنه إنسان طيّب - يقصد عبدالمتجلّي- لكنّه "مجرّد مشروع" جيّد لرجل دعوة يمكن أن يُتَناول بالصقل، والتدريب، والتعليم والخبرة؛ حتى يصبح على النحو الذي نريد، وعبدالمتجلّي أنموذج لكثير من الشخصيات الإسلامية الطيبة التي تتوقّد حماسة، ورغبة في العمل الجاد من أجل التغيير، لكنّه يفتقر إلى الكثير من مقوّمات الداعية، وخاصة في مجال العمل والتخطيط"(٢).

(١) نفس المرجع، ص: ٣٠٥/٣٠٦

(٢) تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية، نجيب الكيلاني، ص: ٩١

إذن؛ فشخصية عبدالمتجلّي مشروع داعية/دعوي، لم يكتمل؟ ومن حقّنا ـ طبعا ـ أن نتساءل عن السبب:

فما هي معوقاته يا ترى..؟ وهل هي معوقات ذاتية أم خارجية..؟

بطبيعة الحال أجوبة هذه الأسئلة مبعثرة عبر صفحات القصة، وتبقى قناعة كلّ واحد منّا في اختيار الجواب الأنسب والصحيح، لكنّني أودّ أن أقف بكم -هنا- على ثلاث نقط أساسية، أراها تنسجم وروح هذا الموضوع:

أ- أن الكيلاني كان من الممكن أن يزيد أو ينقص قليلا من جرعات هذه البطولة، كان من الممكن ـ مثلا ـ أن يصل بشخصية "عبدالمتجلّي" إلى درجة السوبرمانية، لكنه تحفّظ كثيرا في تحريكها، لأنه لا يريد أن يجانب الحقيقة، أو يُميّع الواقع المعيش. فبطولتنا الحالية ـ في مواجهة كلّ أشكال الظلم والحيف والتدليس والاختلاس ـ ليست في المستوى المطلوب، بل ما زالت منحصرة في مستواها الثالث، حسب سلّم تغيير المنكرات؛ أي: القلبية. وفي بعض الحالات القليلة تتعدّاها إلى الدرجة الثانية؛ وهي درجة اللسان. و"عبدالمتجلّي" من هذا الصنف، وظلّ يتراوح بين الدرجتين حتى ناله ما ناله من الخسف والتعذيب.

لذا، فالكيلاني لم يرد أن يخدعنا ببطولات جوفاء، وشعارات نكراء.. ولا بآمال فارغة. بل إنه يؤسس نظرته المستقبلية المشرقة، على راهن منحلّ مظلم، وعلى واقع مريض قاس.. وعلى هذه الأنقاض تنمو وتترعرع فسائل الحياة.

ب ـ أن شخصيات الكيلاني هي شخصيات موجّهة وليست سائبة أو متفلّتة تماما، بل يتدخّل من حين لآخر ـ برفق ـ ليوجّهها الوجهة الحسنة، التي تنسجم وطبيعة الإنسان؛ من حيث كوامنه الذاتية، والاجتماعية وحتّى البيولوجية منها.. دون أن تنزلق في العبثية والوهم المسيطرين على معظم أبطال روايات معاصريه. وهذه النظرة التوجيهية تتمّ من خلف لا من الدّاخل، وذلك حتى يمنح مساحة من الحرية الطبيعية للشخصيات.. وحتى لا تتحوّل إلى دمى متحرّكة تعبّر عن هلوسات صاحبها، أو نماذج تطبيقية عاكسة لهواجس الكاتب، وأحلامه.. وإنما يتدخّل بفكره الثاقب الناقد، المتفحّص لدقائق الأمور، وأهمّها.. فيُدير دفتي

الحوار والأحداث؛ لشحذ الشخصيات، ودفعها إلى الأمام لرسم عيوب المجتمع وتناقضاته، ورصد آثاره السلبية منها والإيجابية: "نعم ـ يقول الكيلاني فالكاتب يتوارى خلف أحداث معيّنة ليُطْلِق لنفسه العِنَان في لعن الظّلم، والفساد.. أيّ ظلم وأيَّ فساد"(١).

ج ــ أن الكيلاني لم يكن يكتب عن نفسه، بقدر ما كان يكتب عن هموم غيره. وهي مهمّة كلّ أديب، وأريب، بل هي الرسالة الحقّة لكلّ من يدّعي رفع القلم لمقارعة الظلم، والفساد.. وهي المطيّة المثلى لمن أراد السموق والخلود. ولذلك حينما استرعى ابن الأثير اهتمام المصريين وشغفهم بالمتنبي سأل القاضي الفاضل عن السبب فكان جوابه: "إِنَّ أَبَا الطَيِّبِ يَنْطِقُ عَنْ خَوَاطِرِ النَّاسِ"(٢).

وهو نفس الجواب تقريبا الذي قاله الشيخ ناصيف اليازجي حينما سُئل عن سبب شيوع، وذيوع شعر المتنبي، فقال: "إنه كان ينطق بألسنة الحدثان، ويتكلم بخاطر كلّ إنسان"(٣).

فلا غرابة إذن؛ إن نحن قارنا بين الرجلين، فكلاهما جرّد حسام الكلم لردّ الجور وشحذ الهمم. فقط، كانت صولة هذا في الرواية، وصولة ذاك في الشعر.. وبفارق واحد بينها؛ هو أن غضبة المتنبي كانت للعروبة، وغضبة الكيلاني كانت للإسلام.

وأخيرا.. أي بطولة نريد؟

بطبيعة الحال ـ وإضافة لما سبق ـ نريدها بطولة بانية إيجابية واقعية تنشد قيم الخير والحق والجمال في القول والفعل والعمل، تنشر الفضيلة وتمقت الرذيلة. وإن أردنا أن نحيط بكلّ جوانبها فلنا في القرآن الكريم آية تمنحنا عنوانها، وكيفية رسم

(١) نفس المرجع، ص: ١١١

(٢) الوشي المرقوم؛ ص: ٥٧.

(٣) ناصيف اليازجي (١٨٠٠/٣/٢٥ - ١٨٧١/٢/٨م) ولد في قرية كفر شيما بلبنان، ونشأ في أسرة محبة للعلم والأدب، وعمل كاتبا لدى الأسرة الشهابية، ومن ذلك اكتسب لقب اليازجي، الذي يعني الكاتب بالعربية. أحد شراح ديوان المتنبي،، وشارك في أول ترجمة للإنجيل إلى العربية.

ملامحها؛ وهي في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب).

قد يراها البعض مثالية بعيدة عن الواقعية التي تحدثنا عنها سابقا، نعم؛ فهي كذلك، ولكن لسنا مطالبين دينا ولا أدبا أن نأتي بمثلها، فذلك شأو النبوة الذي لا يجارى ولا يقارب، وتلك سماء لا تطاولها سماء.

وإنما نحن نقارب محمدا الإنسان بكل ما في الكلمة من معنى، الإنسان الذي "كان يُرَقِّعُ ثوبه، ويَخصفُ نعله بيده، ويخدم نفسه ويَعْقِلُ بعيره، ويأكل مع الخادم، ويقضي حاجة الضعيف البائس."(١).

الإنسان البسيط، الذي كان يقول لمن يَتَهَيَّبُونه: "هوّنوا عليكم، إنَّ أُمي كانت تأكل القَدِيدَ بمكَّة».

الإنسان العدل، الذي كان يستقبل الناس باكيا وهو يقول: "من كنتُ جَلَدتُ له ظَهْراً، فهذا ظَهري فَلْيَقْتَدْ منه.. ومن كنتُ أخذت له مالا، فهذا مالي فليأخُذْ منهُ.."(٢)

محمد الإنسان الذي كان يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فكان يُسأل فيُعطي، ثم يُسأل فيُعطي، ثم يُسأل فيعيد ثم يُسأل فيعيد..

الإنسان المتواضع الذي كان إذا صافح أو صافحه الرجل لا ينزع يده، وإذا استقبله بوجه لا يصرفه عنه، ولا يُرَى مقدِّماً ركبتيه بين يدي جليس له."(٣)

الأب الإنسان الذي كان يلاعب الصبيان، ويَصُفُّهُم ثم يقول: من سبق إِلَيَّ فله كذا وكذا، فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزم."(٤).

ويركَبُ حفيداه على عاتقه فيقول أحد أصحابه لهما: نعم الفرس فرسكما، فيردّ عليه: ونعم الفارسان هما.

(١) الرسول ﷺ سعيد حوّى، ج١؛ ص: ١٥٤.

(٢) رجال حول الرسول، خالد محمد خالد، ص: ١٧

(٣) رواه الترمذي و ابن ماجة، في البداية، ج٦؛ ص: ٣٩

(٤) الرسول ﷺ سعيد حوّى، ج١؛ ص: ١٧٥

ويتأخر في سجوده ذات مرّة فيسأله أحدهم: لقد أطلت السجود يارسول الله؟ فيردّ عليه: ارتحلني ابني فكرهت أن أعجله."

الرجل الإنسان الذي كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيده.. فما ينزع من يدها حتى تذهب به حيث شاءت."[1]

الإنسان الزوج الذي كان يلاعب أهله، ويُعينُهن في شؤون البيت، فكان أَفْكَهَ النّاس مع نسائه.

الزوج الذي كان يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع إحدى زوجاته رجلها على ركبته حتى تركب.

الإنسان الصاحب الذي إن ركب ناقة أو بغلا أو حمارا أردف رفيقه خلفه، بل وكان يُعاقب مع رفاقه.

الإنسان الذي كان يسبق حلمُه جهلَه، ولا تزيدُه شِدّةُ الجَهلِ عليه إلاّ حِلْماً. كما وصفه أحد أصحابه.

فهذه هي البطولة الحقة في أسمى معانيها، وهذه هي الشخصية التي نريدها بكلّ أبعادها و مراميها، وإن كان كل ما ذكرنا إلا نقطة من بحر، فلو استغرقنا يومنا هذا ووصلنا ليله بنهاره ما استنفدنا بعض بعض خلاله، ولا أحطنا بوصفه، ولا أدركنا ساحل شأوه وجلاله.

لذا فإن كانت لدينا من بطولة ترام؛ فلا خير ولا أعظم من سيرة رسول الله ﷺ وصحابته من بعده تكون لها قدوة ومثالا وبذلك: "تغدو شخصية النبي ﷺ شخصية "دينامية" حاضرة بقوة، تستلهم الشخصيات الأخرى مواقفه ﷺ، وسيرته العطرة في إيجاد حلول للإشكالات الرّوائية، وفي اتّخاذ المواقف، وتكوين الرُّؤى. فتجري على ألسنة الشخصيات أحاديثه ومواعظه، ومواقفه في الحياة ليقيسوا بذلك الحاضر الماثل على الماضي الغائب.

(١) رواه ابن ماجة.

و شخصية النبي بهذه الصِّفة لا شكّ في أنها حاضرة في العمل الروائي حضورا "ظلالياً" شفافا، وجوده وجود إيحائي يهيمن على جميع مستويات البناء الروائي."[1].

و بهذا لن تغادر بطولاتنا الإسلامية شطّ الأصالة والسمو المفعم بقيم الحق والخير و الجمال بإذن الله تعالى.

(١) صورة النبي ﷺ في الأدب الإفريقي، د. آدم مباص، المشكاة عدد ٤٨/٤٩، سنة: ٢٠٠٧، ص: ١٤٠.

obeikandl.com